قصة الشهر

تحت الحرير

بقلم مطاع صفدي

بدا لها الطريق الى الجامعة طريقاً الى قمة رائعة ، تتجمع لديها حياتها لأول مرة على معنى واضح كالشمس ، خصب كالقلب . إنها وهي تصعد بجوار حديقة الآثار ترنو الى الأسد الأغبر الرابض فيها . وهكذا تكتشف فيه هذا الصباح نظرات الأسد الحقيقية : ما أعظم التصميم ! ما أقوى أن ينظر الإنسان بكبرياء لا حد لها ! ما أجمل السفور عن الوجه ، والسفور عن الروح !

الغاية المتلألئة بأنوار تعكسها عليها إرادة من سيحقق الغاية ، هي الحقيقة الثابتة وحدها في عالم إنساني يمور ويزول ، يتحول ويفنى . أن يكون الإنسان لغاية ، كأن يكون كتاب لمعنى ، كأن تكون شجرة لموسم ، فذلك ما يجعل الحياة لائقة بعظمة الأمل الذي يبتدعه كائن ، تكاد تثقب الآفاق عيونه.

وهذه هي غايتي ، حياتي الجديدة ، أراها بعد اللحظات الباقية ، التي تتتابع بيني وبين أن ينبثق عمري الضحل القديم كله في حادثة صارخة جاسمة ، أعددتها أنا بوعيي وحريتي الخاصة . لحظاتي تتفجر الآن خلجات في فؤادي. أليس كل امرىء ليحمل ساعته الحقيقية ! وإن شغل عنها بالساعة المعدنية ؟ ساعته هذه كتلة من اللحم خافقة بين الضلوع ، ولا يسمعها إلا صاحبها وحده، تقرع وجوده من صميمه ، من بذرته ، معينة له زمانه الخاص ... وهكذا اختلفت الأعمار ، وأعمار الحوادث ، ومدد العواطف والصور ، وظلال المواقف التي تعكسها حياة الواقع الموارة . أليس لكل ساعته الخاصة — قلبه الخاص — تعد عليه وجوده ، من داخل ؟ فهي في سرعة حيناً . وعلى بطء حيناً آخر . على السطح مرة ، وفي اللجج السوداء مرة أخرى .ساعة فيها الحب والملل ، القلق والأمل والنشوة . وكأنها تعد لشيء جليل آخر الأمر ، لوقت فاصل ، لدقة ينكشف فيها تاريخ الموجود بتمامه . تقف فيها الساعة . أو تنطلق لتبدع زماناً فردياً ، مستقبلاً مجهولاً ..

قد يكون مصيري الذي أنتظره في ساحة الجامعة ، بين الأزهار والسيارات وجحافل الطلبة ، ليس بالنسبة لغيري ، كما أؤمن به أنا . ولكنه تجربة رائعة لي . ليس أرهب منها موعداً مع رجل . فاني أحاذي الازمة وأناوش خطراً غامضاً . وبهذا ليست أيامي ، بعد، تجري كجدول ناعس لا تحس به حوافيه . إنها الذروة التي أدنو منها شيئاً فشيئاً . وكلما اقتربت تسارعت واصطخبت لجاجاً بعد لجج وأمواجاً وهديراً . لن اسمها وحدي ، بل ستتفجر بين مئات الناس .

هذه اللحظة سأقف ما لم أقفه قط . سأصرخ وسيدوي صوتي في كهوف من لحم ودم : فسيرجع إذن صوتي أصواتاً ، وضجتي ضجات وزئيراً .

سأخطب ، أنا الفتاة ، في جمع يحارب بقابه من يحارب بالحديد والنار .

* * *

فتاة أشبه بالطلسم تحت آلاف من الغلالات الحريرية . تنظر من خلال الحرير الى الشارع . من خلال البرقع الى البشر . من خلال الحياء الى البطولة. تتخضب وجنتاها بأشعة الشمس ، تحرقها . وكما تقول أمها : تقتم بشرتها . ترتعد للنسمة ، لعلها حملت رائحة حراماً ..

ولإذ لم يكن ثمة أحد يهمه منها غير ظاهرها ، فقد اعتادت أن تتحدث الى نفسها ، أن تكتب مذكرات دائماً . وقد كتبت ذات مرة :

«لست أنا إلا .. جميلة . ولا يعرفني احد إلا جميلة . وما عملي إلا ان اكون جميلة . ان اصون الجمال . ان اتقبل الإطراء .. ان اكون حراما .

أجمل من امها في صباها ، وربما اجمل من اختها الكبرى ، التي دفع لها «فيها» مهر يبلغ ثلاثين الفاً ، مع شهر عسل في ايطاليا .

عروس .. عروس . تلك خلاصة وافية عني .

وحياتي .. مع امي : خياطات ، استقبالات ، افلام مصرية غرامية ، ثرثرة والوان وصباغات ونساء ، وفضائح زواج وطلاق وخيانة .. الشرف ! كلمة عفنت الشرق..

رباه ! لقد أعدوا لي كل شيء من قديم ، قبل ان أولد : كيف أنمو ، كيف افكر ، كيف أمشي وأرتدي ملابسي . حوادثي كلها من صنعهم . إنها حوادثهم . وما أنا إلا تكرار . شاشة سينما ينعكس عليها الفلم والفلم الواحد ، عشرات المرات . لاأملك شيئاً غير ان أنصاع، وتلك هي التربية والاخلاق . ان اكون عذراء ، حتى من وجودي ، وزوجة مخصاباً .. وفية حين زواجي الذي لابد منه .. لي ولكل فتاة .»

وكتبت مرة اخرى : « سئمت اليوم حديثهن . كانت رسالة غرام تتداول سراً بين تلميذات الصف. قرأتها كل واحدة ، لكي ترمق صاحبتها اخيراً بحسد شره وإعجاب مكبوت. حتى صفيتي من بين هذا الخلق الزجاجي « سعاد » هي الاخرى تمنت ذات الأمنية ، ان تصبح هدفاً للاعجاب من شاب ينتظر قرب باب المدرسة ، ومن زميلات لها في صف الشهادة الثانوية.

كأنه لابد من حب لكل انثى . ولكنني انا لازلت أهزأ بكل عادة. أليس الحب أيضاً عادة .. محرمة؟ أعترف ان احلامي غامضة جدا ، مشوشة غائمة . بيد أنها تنفرج احياناً عن خيال رجل . اما انا فاني عزمت ان اجده بنفسي .. لا هو .. »

وكتبت قبيل فحص الشهادة بأسابيع قليلة : « وصلتني رسالته الثالثة عن طريقها المعتاد .. سعاد . كلهن ساعيات بريد مخلصات . على ان يطلعن على بعض ما يحملن . على ان يشاركن المرسل إليه فرصته وغبطته وغروره . وأملاً ان يحمل الى واحدة منهن رسالة اخرى من شاب آخر ، يوماً ما.

كتابه هذا لا يستغرق في حشو من الجمل الغرامية المسروقة من الف ليلة وليلة، ومن الاشعار المستوردة من المجلات الرخيصة . كما هي الرسائل التي بعثها الي صبيان كثيرون .

يبدو انه رازن كبير ، ويعرفني اكثر مما ينبغي . لقد آلمتني لهجته المتحدية : « انك حرب كبيرة على صباك وجمالك . زهرة رائعة في تربة لا تستحقها . ما بالك قاسية ؟ أتحسبين أنك اقوى من ان تحبي ؟ »

اهانة اخرى من واحد في مجتمع لايعرف إلا ان يهين ويخضع ويقتل ... لا لن احب ، ولن يكون ذلك بأسلوبهم مطلقاً . »

وكتبت بعدها بليلة « لقد عرفته . كان لابد ان اكتشفه . ولم تستطع سعاد ان تكتم الى الابد . لكنها أبت ان تبوح لي باسمه . وفضلت ان أراه مباشرة .

كان احمد ولا احد سواه . احمد الذي وثقت به عائلتي واعتبرته واحداً منها فهو صديق أخي « مكرم » منذ الطفولة . انه يدخل بيتنا ويخرج ساعة يشاء . لقد دفعني الى صميم المعركة أخيراً . فها هي ذي رسائله تجذبني الى قراءتها بلذة سمجة ، ليلة بعد ليلة . وها هو ينتظرني بلهفة فيها صلف كثير عند مفترق شارعنا . وها هي صديقتي سعاد شاهدة على تفاصيل هذه القصة المزعجة .

كيف سأقابله بعد الآن في البيت، وهو يزورنا كل يوم، وتكادتكون كل غدوات اخي وروحاته يشاركه فيها ؟

كنت ، من قبل ، اتحدث إليه كما اتحدث الى إنسان في البيت . وكان يراني في كل هيئة . كانت تفاصيل حياتي اليومية معروضة امامه .. مفضوحة. دون ان احاول اخفاء شيء، فانا اكرهها واكره كل من اشترك معي في مسرحية البيت المتكررة آلافاً وآلافاً من المرات . وما عنيت يوماً بأن أحتاط للأمر .

ليس لدي إذن اسرار فهو يعرفني جيداً . وفي البيت الشرقي لا يحتفظ الانسان بسره طويلاً . هذا الانسان غزاني دون ان يدع لي اي فرصة. يالوقاحة !

كان بالنسبة لي شيئاً من اشياء الدار، قطعة من الاثاث. وأما الآن فهو أشبه بالزوبعة يكشف عني .. حتى ثيابي . »

وكتبت ذات ليلة وهي في سريرها ، كعادتها قبل ان تنام :

« كانت سهرتنا هذا المساء حافلة ضاجة، احتدم فيها كل نوع من الغضب والنقاش والمهاترة . كنا نجلس في جمود اماسينا المعتادة . ابي بجثته الهائلة يربض فوق كرسيه المريح الكبير ، تتثاءب عيناه خلف نظارتيه الغليظتين ، وتحملقان من لحظة الى اخرى في صحف ومجلات وبعض الكتب التقليدية . واخوتي تسحرهم هيئة ابي العابسة وراء كتبهم ووظائفهم . وامي تنقل بصرها الساذج بيننا وبين ما تنسجه من الصوف ، وبين ساعة الحائط .

كنت ادرك ان امي مضطربة . وهي تعاني من الخوف والحنان ما يجعلها ترقب الساعة الكبيرة بقلق . وتصغي لعل الباب يفتح اخيراً عن الفرد الوحيد المتمرد على مثل هذه السهرات العائلية الخرساء .

وحين قاربت الساعة العاشرة والنصف دخل اخي « مكرم » ولم يأت وحده . بل تبعه احمد . ورغم حراجة الموقف، فقد لمحته ينظر إلي اول ما ينظر .

تنحنح ابي وارتجفت امي . وزايلت عيون اخوتي الكتب الى منظر جديد ، مهما يكن فهو سيدخل شيئاً من الصخب على هذا الصمت الكئيب. وشعرت انا بشيء من الشوق الى ما سيصيب نظام سهرة ابي من تشويش . صاح اخيراً :

— هل هي تلك الاجتماعات السرية السياسية ايضاً يا احمد ؟ لا اعتقد انك اتيت مع مكرم الليلة لتحميه من تعنيفي .شهران وهو يقضي سهراته خارج البيت . لعن الله الساعة التي دخل فيها هذه الجامعة .. متى كان شبان مثلكم لا يعرفون بعد معنى الحياة يشتغلون في السياسة !

وهنا اختلطت الكلمات بالزمجرات والشتائم .وهي لووزعت لاصابت عشرات منها رأس كل شقي من ابناء الجيل .

وارتفع صوت احمد من خلال صخب ابي . وظهر انه يتحكم في كل كلمة يلفظها، فيسير بها الجهة التي يريد، عالماً بوقع كل حرف في نفس ابي قبل ان يتلفظه. وإذ اوغل قليلاً، تراءى لي انه لا يهدف فحسب إلى اقناع ابي بحق الشباب في العمل العام، ولكنه يود لو يجعل حديثه اشبه بالايحاء المحكم، فيلقي الي ببادىء اخافتني ، دون ان يطمع بموافقة ابي عليها . فقد كان يحاول ان يجذب انتباهي وإعجابي ولو عن طريق إخافتي وإثارتي . وكان مما قاله :

— ليست السياسة كما تفهمون هي ما نريد . ليست صفقات تعقد بين الاكابر لتطبيق الاصوات في سبيل استمرار العنجهية العائلية والحكمة العتيقة البالية . ليست الكراسي والمناصب وحكم الاشخاص العريقي النسب في استعباد الشعب لاطماعهم . ليست السياسة ، سياستنا ، نوعاً من الامتداد الفاني للسلطنة العثمانية .. من حق الخلفاء وحدهم وحاشيتهم اسحاب الكروش .

فقاطعه ابي محتداً : وما دخلي انا في ذلك ؟ انك تتهمني وكأنني انا المسؤول عما تسمونه ، في مناشيركم ، الفئة الحاكمة او تجار السياسة .. كل ما هنالك انني احاول تربية ابني كما يحلو لي .. علية ان يتبع اخلاق ابيه ويقتفي سيرته . انا كنت طيلة ثلاثين عاماً موظفاً امينا لم يأخذ علي رئيسي مرة انني تأخرت بعد الثامنة صباحاً دقيقة واحدة، او اهملت معاملة الناس، او تمردت على قرار حكومي . وانتم ما بالكم تشتمون كل حكومة ، وتدبرون لها المؤامرات مع من تسمونه الشعب ، وتحرضون هذا القطيع الاسود ضدها .. يجب ان يخضع ابني لقانون الدولة .. وهو الذي سيصبح قريباً موظفاً مثل ابيه .

احمد : بل يجب ان يكون كل فرد منا متمرداً على نظام فريق يحافظ على الاوضاع الفاسدة ، لكي نقيم نظاما آخر ينبع عن حرية كل فرد داخل فيه ولا يأتيه قسراً من خارج .. اجل نحن ثورة بل فوضى بالنسبة لانظمتكم . لقد تعلمتم ان تنفذوا القانون الذي وجد ليجعل الجريمة مبررة والخيانة مشروعة والاتجار بالعروبة عملاً سياسياً شريفاً .. لانه من عمل الاشراف وحدهم ..

— وما الذي جاء بالعروبة الى ثرثرتك ايها الغر ؟

— بل ان العروبة وحدها هي مصدر كل نظام حي واخلاق جديدة. وإذا كانت قد افسدتها ألسنة الحكام لكثرة ما لاكوها، فهي لم يفسد منها الا كلمها . واما حقيقتها فانها حية في صدورنا جميعاً . من العروبة نستوحي الثورة على الجامد والعتيق والمدسوس والمزيف . من العروبة نستوحي اخلاق البطولة والنبل والكرامة . من العروبة نستمد اعظم معنى للحرية التي رادفت كل عمل جليل خارق قام به اجدادنا يوم فتحوا العالم ..

ابي : يالك من متشدق بألفاظ لا تفقهها من معنى إلا جرسها اللفظي .. احسب يا هذا انني لست من العرب ؟ ام اننا نحن الآباء لم يبق لنا شيء من العروبة بعد ان احتكرها اولادنا الشباب حفظهم الله .! انني عربي واما انت فلا . اذ تنقصك التجربة . وبعدها ستعلم ما العروبة الحقة . وبعد إذا قلت ان الحرية هي ما تحاولون اليوم ، فلماذا لا تتركوني حراً في تربية ابنائي ؟!

وهنا سنحت لاخي مكرم الفرصة لان يتدخل بعد حماس طويل مكبوت:

— ولكنني حر في نوع التربية التي اتلقى، وتربيتك هذه يا ابي، اسمح لي وعفواً ، لا تنسجم ونوازع الشباب الجديد .

ابي : اخرس .! ليست حريتك إلا تطاولاً على من اتى بك الى

العالم ومن اعتنى بك واطعمك وحماك وعلمك وجعل منك رجلاً ..

والتفت الى امي : هذا الولد ياسيدتي لن اطيق وجوده بيننا منذ الآن.. اجمعي له اشياءه وليرحل عنا ..

وانخرط اخوتي صغاراً وكباراً في النحيب . وبكيت انا ايضاً . نظر الينا والدنا مبهوتاً ، واحتقنت اوداجه وبرزت الطيبة الساذجة فجأة الى تقاطيع وجهه . وهرع الى غرفته . وقد لحقت به والدتنا . وسمعته من خلال نشيجه يقول لها : هؤلاء الشباب يا صفية يجعلونني ابكي إعجاباً بهم وشفقة عليهم .. إن الطاغوت لن يرحمهم . !

اذهلتنا دموع ابينا فوجمنا وكأننا شعرنا جميعاً بوقر جريمة ساهمنا فيها كلنا . ولكن اخي البالغ من العمر عشرة اعوام تقدم قليلاً من مكرم صائحاً : لقد آلمت بابا يا مكرم .. إنه يحبك ويحبنا جميعاً .

وإذ ذاك وجدتني اندخل لاول مرة فأقول له بشدة : « الا تعلم يا هذا ان ما يغضب اباك عند تأخرك ليلة بعد ليلة هو انه لا يستطيع ان يراك الى جانبه .. إنك تحرمه من رؤيتك وتقلقه على مصيرك. وانت تدري كم يعول على السهرة العائلية الكاملة ... الهادئة » . وقلت آخر كلمة بشيء من البرود الاصم . واجابني احمد . ولم يرق لي ان يتكلم عن اخي . وإن اعجبني في النهاية جوابه :« عفواً يا رباب ..اشعر اني وحدي المسؤول عما جرى الليلة .. ولكن الا ترين معي انه كان لا بد من مثل هذا الموقف الحاسم اخيراً ؟ لعل كلا الطرفين يطامنان من تطرفهما : ابوك من عاداته الصلبة ومفاهيمه ، واخوك من عناده وتحديه المستورد ..

ولم يتم كلامه . فقد رأى في نظراتي ما يمنعه عن ذلك . وبعد صمت قليل اجبته في حماس اخجلني فيما بعد : — بل يجب ان يكون عنيداً الى اقصى حد واقسى مما تعرف انت .. وكذلك فلنكن جميعاً كذلك !

وهكذا بحت بشيء كثير مما كان ينمو بنفسي ولا اعلمه .

قال احمد : إنك على حق .. وإنني معجب بالتطرف الذي يعد لنا اكبر طاقة وقدرة على متابعة طريقنا .

والتقت عيوننا . وضايقني ذلك . وفهمت انه يسألني شيئاً خاصاً بنا .. لا بل به وحده .

والآن وانا اكتب اليك يا نفسي اسائلك : ترى هل حقاً سيتلقى جواباً على رسائله الثلاث ؟ »

وكانت إجابتي له بعد شهرين شفهياً : إنه ليس لدي ما اقوله له . . الآن . فكف عن إلحافه دون ان ينثني نهائياً عن عزمه .

* * *

ومضى عام ونصف . ورأيت نفسي ذات ليلة اكتب له رسالة هذا نصها.

« احمد . عيناك تلاحقاني ابداً . وكلامك لي يبطن قلقاً وعتاباً وحزناً لاتجد احداً تلقي عليه مسؤوليته سواي .. لماذا يا احمد ؟

أتقمرني على ان اكتب إليك ؟ حسناً ، لقد اجتمعنا من جديد في الجامعة وعلي ان اقول لك شيئاً .

اتذكر ما كتبته لي في رسالتك منذ عامين: جمالك زهرة في تربة لاتستحقه. تلك إهانة مسمومة . واليوم ادرك شيئاً آخر كالصدى البعيد الاعمق لقولك ذاك في نفسي . اتدري يا صديقي انني منذ وعيت وجودي افصل دائماً بيني وبين جمالي ؟ إن الفتيات كما تعلم لا يشعرن بالوقت مطلقاً امام المرآة . يتغزلن بجمالهن ، ان كان لهن ذلك . اما انا فلا انكر انني هكذا ايضاً . ولكنني اعتدت حينما انظر نفسي في المرآة الا ارى جمالي إلا وكأنه صورة دمية . . صورة جميلة لاي إمراة اخرى ما عداي .

او انني انفذ حيناً آخر الى ما وراء القناع الابيض المورد ، واتساءل عن معنى كل هذا الجمال الذي أحببته انا كما أحببته انت . ومع ذلك ترى هل علي ان اكون جميلة . . جميلة فحسب . اهذا كل دوري على الارض ؟

وامر آخر اريد ان اثير تفكيرك فيه . لقد تبينت لي يا احمد اشياء كثيرة في سيرتنا الصاخبة . والتي كان من جرائها ان حرم عليك دخول بيتنا مدة اكثر من ستة اشهر . ادركت انك لا تأبه إلا لمدى قدرتك على التأثير في الآخرين . فانت اوقعت اخي تحت سيطرتك . ولا ريب تود لو تجد نفس تلك السلطة علي، ولكن عن طريق آخر . فلو ان الفكرة التي ادخلتها في رأسه اصبحت فكرته لما احتاج الى دفاعك انت عنه . فلا ادري ان كانت العقيدة هي التي يؤمن بها ام شخصيتك المحبوكة جيداً . اتذكر . . لقد جاء بك تلك الليلة لتحميه من سخط ابيه . .

إن الفاصل الدقيق بين شخصيتك وفكرتك يجب ان يكون اوضح مما هو عليه في الواقع . لست ادعو بذلك الى استقلال الفكرة عن معتنقها . وإنما اخشى عليها من عدم التطابق والامتزاج الصحيح . اخشى على كلا الطرفين في شخصيتك التي لا تنفعل بأصالة وعمق تلقاء حوادثها .

ربما ستعجب لكتابتي هذه . وانا من انا تحت الجرير . لا تنس ان لي وسائلي ايضاً لان اطل على العالم . صحيح انني انظر الى حوادث عالمكم من خلال الحرير . ولكن لا يغرب عن بالك انه حرير . . ولا تنس ايضاً انه لو قدر للكائن خلف الحرير ان يتسلح بوعي فوق الانثوي الشرقي بقليل لاستطاع ان ينفذ الى اسرار اهتماماتكم الكبرى . على الاقل عن طريق المراقبة غير المتعاطفة . وبهذا يبقى الغموض يكتنفه وحده . والوضوح يخيم على عالمكم ، ما دام الكائن مخبأ تحت الحرير . تلك عادة اخرى افادتني قليلاً ، وسأنتصر عليها هي ايضاً قريباً .

المرأة بنظركم غايتها الحب . ولكنه احياناً قد يكون وسيلتها لبلوغ كوامن عاطفية وفكرية اعمق من مجرد النشوة . قد تطلع على ما لا يتوصل اليه بالتفكير الحكمي المجرد . وكل ذلك لان الحب قدرة على النفوذ لا حد لها .

واول ما يكتشف الحب يا صديقي — وتلك هي تجربتي تلقاءك — قيمة موضوعه ويحدها للأسف دائما سخيفة محدودة لا تطاق ، ولا بعد ثالثاً لها . إذ انها لا تتناسب وهذه اللوعة المشوقة التي تؤزم وجدان المحب . وليس في ذلك خيبة مطلقة تقضي على الحب ، هذا الانبثاق المثير للعالم . ولكنه يدفع به ابداً الى افق اوسع واوسع ، بعد ان تزود منه صاحبه بتلك الحساسية الوجدانية المرهفة بالمعاني الدقيقة والمواقف الخفية العميقة التي تنطوي عليها الحياة اليومية . وهكذا تصبح هذه الحساسية مقياس إنسانيته الحقيقي . إنسانيته . . قدرته على الشعور الى ما لا نهاية . . بالاعمق والاجمل والاحق .

وانا قد قفزت منك الى ما هو ابعد منك . . اجمل واحق !

لم تثرني انت ، بقدر ما اثارتني الرسالة التي تدعيها . . . الثورة . هذا اللفظ الذي يطربك جرسه لا تحقيقه . قد يتراءى لك ، كما حدثتني مرة ، ان علاقة عكسية تربط الحب والثورة . بين ان يفجر المرء كل قوته نحو خارج ، وبين ان يجمعها معمقاً إياها في ذاته . بين التشتيت والتركيز . انا لا ارى غير ذلك . ان الحب نفسه ثورة . وخاصة في محيطنا . فهو بالنسبة الى الفرد من امتنا ثورة على ما اعتاده من العواطف والافكار السطحية المبتذلة التي يلقنها تلقينا ويعارها إعارة . انه بدء لان يعيش الانسان حقيقته هو التي يكتشفها خلال هذه التجربة الفريدة ، بدل ان

يعيش نسخة عن الآخرين ومثلهم . وفي ذلك سيكون العاشق وحيداً غطلقاً مع مصيره . لن تفيده نصيحة اي انسان . ولن تكون تجربة ميره دليلاً لتجربته . وهذا احد السبل الناجعة لان يكون الفرد صنع ارادته . هذا ان كان يملك ثمة خصباً اصيلاً، والا فستفقد تجربته طابعها وتسقط في ابتذال مثيلاتها .

واما انت، فقد رتبت الامور في عقلك على غير ما تسيرعليه في الواقع . خاصة بالنسبة لي : « شابة جميلة لها طموحها الانثوي (المعتاد) ، محظور عليها الاختلاط ، وانا الشاب الوحيد الذي سيتصل بها، وستراه باستمرار . فلا بد في النهاية من الحب . . » بعرفك . وهذه هي العبودية بعرفي . لانك لن تعرف حقاً الحب الصحيح . وتجربتك عنه فاشلة مصطنعة من الفها الى يائها .

لقد استمعت اليك تلك الامسية وانت تدافع عن اخي . قل لي انك لم تلق بطاعتك ضد ابي ، إلا لانك نفسك لم تكن تستطيع إقناع ذاتك ببرهان حقيقي يثبت مزاعمك . تلك حقائق ولا ريب ، ولكنها عندك لم تزل بعد مزاعم . فاجأت إذن الى ما يشبه الشتائم .

انت مغرور يا احمد ، وذاك مرض اغاب شبابنا نصف المثقف . لا يهمك من الثورة إلا ما تفسحه لك من مجهول جديد يثير فيك الحلم بالمغامرة . لا المغامرة نفسها . واني اقول لك ليس من دواعي الثورة ان تحب . ولكن من دواعي الحب ان تثور . . تثور على نفسك المزيفة ومجتمعك، هذه البركة الآسنة من حيوانات عصور ما قبل التاريخ . واذا كان ثمة كائن تتوضح لديه الثورة فهو عند نقيض الثورة . . المرأة . واكثر من ذلك المرأة العربية التي تتركز فيها وتلتقي عندها جميع تقاليد المجتمع غير الحر!

ولهذا يا صديقي ، فاني صممت ان اثور . . واول ما سأثور عليه هو قاعدة ان اكون جميلة . . محبوبة . سأشتغل في السياسة . ولن احتاج الى دفاعك إذا ما اصطدمت يوماً باطاري العائلي . »

* * *

ذات صباح دوى صوت حاد ثاقب في اروقة الجامعة . ومالبث الطلاب أن اجتمعوا في الساحة الخارجية . وكان الخبر كالنار يتداوله الشباب : يقال ان فتاة تخطب . . يقال انها ستقود مظاهرة اليوم .

وكان احدهم . . يقف قرب الجدار يهزأ في بسمة، واضح انها ساخرة . ولكن ما هو موضوع سخريته ؟ اهذه التي تتقاذف منها الكلمات كالرصاص الذي سيتفجر قريباً حول السور من مرتزقة الديكتاتور المحيطين بسياج الجامعة . . ؟ام هو نفسه ، من يقف لا يدري هل يصدق اذنيه فيلتهب حماساً كهؤلاء الفتيان والفتيات ، ام يجمد كقطعة من الجدار المستند اليه . ويملأ ذاته احتقاراً كافراً بكل ما اتاه من اعمال ثورية . . جليلة ، راحت تبدو له الآن كأنها فارغة من مغزاها الاصلي الذي تعزى به طويلاً عن كل المشاق التي سببته له ؟ ترى ايكون الجندي في الجبهة ولا يحارب ؟ ايقتل ويهدم ويسجن ويضرب ، دون ان يفعل او ينفعل بشيء من هذا في الواقع ؟ وتساءلت اعماقه بوحشية مكشرة . اين الصدق في حياته ؟ !

ونظر اليها : مخيفة بكلماتها الصخرية . تهتز ، وليس غنجاً ارتعاشها . تهدد بقبضتها ، وليس في زندها اساور ذهب تثير خشخشة بلهاء تحملق عيونها في وجوه المتظاهرين ، فيرون فيها الكلمات قبل ان تنطق بالكلمات . ويلمحون فيها الوقائع ، مشخصة معانيها، التي ستصير اليها الفاظها . عيون جريئة ليس فيها كسل الحلم . بل يقظة ساطعة تقذف الشرر المحرق . وشعرها يتواثب على جبينها كعاصفة مكبلة .

انه يذكر مواقف عدة له كان يلقي فيها الخطب النارية . ولكنه لم يكن مرة يرجو في الوجوه التي امامه اكثر من امارات الاعجاب بمعانيه وروعتها . ويلتهم الازدراء احشاءه لاول مرة ، اذ تتكشف له حقيقة نفسه حينما كان يتصدر الهجوم على الشرطة . فقد كان ينظر خلفه ليرى كم من العيون تراقب بطولته . اواه . . إذن كاد ان يموت اكثر من مرة في سبيل ماذا؟ حتى انه كان مستعداً للقتل فيما لو رآه الناس والشعب والحزب .

ليس هذا . . بل ان للابطال بعض العادة ، بعض العزاء . فهم يحتاجون الى الاعجاب . وما البطولة إذن ، اذا كان الانسان يعمل وحده ؟

اما هذه . . . هذه الفتاة كالحمم البركانية . اين انوثتها ؟ هي قاسية ! وتدعي اليوم انها تخطو خطوة جبارة في ميدان النضال الانثوي . . العربي .

إنها تدفعه ، ارادت ام لم ترد، الى الشعور بحقارة لا حد لها امام كبريائها الصادقة .

كل شيء فيها الآن يصرخ . انها ثورة للثورة نفسها، للمثل الاعلى الحقيقي . لاتكاد تستهدف ثمناً لنضالها الا الاعجاب . فهي تملكه لانها جميلة . ولا للتمجيد والتصفيق . وها هي ذي لاتقف عند جملة لتنتشي بالتصفيق والهتافات لتمجيد نضال المرأة العربية ، التي تتصاعد من قلوب الشباب . وكأنهم فتحوا فتحاً مبيناً . ونالوا نصراً عظيماً دونه النصر على الديكتاتور القزم .

المرأة العربية . . فايتحرك هذا المخلوق منذ الآن .

انه ليس يحقق الانقلاب العربي الا من كانوا اكثر شعوراً بالظلم والمرارة والفراغ . ليس فقط الفقراء والعمال والفلاحون . ان لدى هؤلاء يتجسم الظلم المادي . واما الظلم الاقسى ، ظلم القلوب والوجدانات والحريات ، فلنفتش عنه لدى امرأة تبحث عن الكرامة ، ولدى رجل يجوع للوجود الاكمل .

هذا ما ارادت ان تقوله له دائماً . . وهي تحت الحرير . وابى هو ان يعترف بنضالها . وإنه ليحس الآن بأعماقه انه قد ساهم بنوع من الظلم كان آخر ما سدد الى فتاته هذه . . التي تقود مظاهرة اليوم في الجامعة .

* * *

هكذا . . لم يعد يصطخب صوتها والهتاف فقط . لقد دخله عنصر آخر رائع . . الرصاص .

واندفعت الجموع نحو الاسوار . وبينهم كان احمد يكافح كي يصل الى امام . اعتقد بلمح البصر انه لا بد من تضحية حقيقية هنا اليوم . هذه فرصته . ولم يفت الاوان بعد . وقبل الباب الكبير توقفت المظاهرة .

وسمع احدهم ينادي : اختاه . لقد برز مكرم اخيراً في جناح آخر من المظاهرة المندفعة . . وكان هو ايضاً يقود . .

وعند الباب الكبير ، قبله بخطوات ، توقفت المظاهرة . وكان لا بد من طليعة تقذف بنفسها وتفتح البوابة . وتكون اول من يواجه البنادق الرشاشة المصوبة . وفي تلك اللحظة التي كانت فيها رباب تتحفز للانطلاق ويهدر بعدها الجمهور ، بلغ احمد الخط الاول .

لقد حملقت في بندقية احد المرتزقة القريبين ورمته بنظرة ازدراء نارية واندفعت صائحة : اضرب . . يا حقير . !

وبلغت قفل الباب بأسرع مما ادرك فيه الموقف كل من الرجلين ، المرتزق واحمد . وطار صواب احمد . . ودفع بجسمه امامها .

ومرة اخرى ازدرته عيا رباب .

وتطاير الدم ، وخفتت الاصوات ، وران سكون ذبيح .

وهكذا سقط في ذلك اليوم جرحى كثيرون من الطلاب . . . والطالبات .

دمشق

مطاع صفدي